



فرنسا وتكوين العالم العربي منذ حملة نابليون على مصر . رسالة التمدين الفرنسية لم تخف المصالح النفعية !

الياس القطار نشر في الحياة يوم 11 - 02 - 1998

الكتاب: "المملكة المستحيلة ـ فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث"

المؤلف: هنري لورنس

ترجمة: بشير السباعي

الناشر: مؤسسة الانتشار العربي - بيروت 1997

يحاول الكاتب اختراق باب السياسة الفرنسية تجاه الشرق، من حملة نابليون على مصر في العام 1798 الى بدايات الانت
خلال رصد الفكرة المحورية التي كانت وراء هذه السياسة والتي قادت فرنسا الى خارج حدودها، وهي رسالة تعتبر بأن لـ
الى فرنسيي القرن التاسع عشر، كان قدر بلدهم في العالم هو "الرسالة التمدينية"، اي فكرة نشر الحضارة الفرنسية
"الثقافة".

وفي رأي المفكر الفرنسي والمؤرخ الشهير لوسيان فافر، فإن هناك كلمات عشر يدل تكوّنها وتطورها على تطور مجتمع من الم
مجمل تاريخ الفكر الحديث والمنجزات الرئيسية للثقافة الفكرية في العالم الغربي انما ترتبط بخلق وباستعمالات بضع عش
مجموعها الذخر المشترك للغات أوروبا الغربية.

واحدى هذه الكلمات الاساسية هي "الحضارة". والمسعى الذي يقوم به هنري لورنس هو وليد تساؤل عن الرؤية التي
والاسلامي والتي تأخذ طابعاً ملموساً في خطاب وممارسات الحملة الفرنسية في مصر. وهكذا، ففي مستهل القرن التاسع عش
والتفاسير المتعلقة بالاسلام وبالعرب. وستتبع فرنسا طوال القرن سياسة من انشط السياسات في الملكوت العثماني، خصوصاً في
ويؤكد الكاتب ان الكثير من السياسات المطبقة انما يستلهم رؤى مقررة سلفاً بأكثر مما يستلهم واقع المجريات الفعلية. وم
مستوعباً للمرحلة الممتدة من الحملة الفرنسية على مصر وللقرن الذي تلاها، بل دراسة بعض اللحظات المميزة دراسة خا
اللقاءات بين فرنسا والعالم العربي. تلك اللحظات التي جرى فيها طرح مشروع تأسيس "مملكة عربية" تكون اداة او محرك الت
مفهوم الحضارة هذه ونشرها نشأ في أوروبا في اواسط القرن الثامن عشر في وسط المفكرين "الايديولوجيين" الذين
للمجتمع، وجرت محاولة تطبيقها في الثورة الفرنسية بصورة عملية مباشرة. ولقد ادت هذه الافكار الى جملة نتائج احداها تقول
عن حال الانتقال من الطبيعة الى المجتمع المقيّد: هم الشرقيون الخاضعون للاستبداد الذي هو مرحلة التاريخ الاولى او با
اجتازوا بالفعل مراحل في طريق نزع اغترابهم، وبالتالي عليهم نزع الاغتراب عبر الثورة الفرنسية الصالحة اولاً لفرنسا ثم لبقي

وبالنسبة الى الشرقيين، فإن تدارك التأخر وتجاوزه سوف يكونان ببساطة اكثر اهمية مما بالنسبة الى الغربيين. وحركة التاريخ غير قابل للفصل هي الحضارة، ومن هنا بدأ تسابق المفكرين الاوروبيين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على تـ الحضارة في التاريخ العالمي. وقد خلص المؤرخ والرحالة فوني الى ان المتحضرين في العالم هم الشعوب التي تتمتع بقواني كوندورسيه فإن التاريخ الحقيقي لا يظهر الا مع الاغريق، فإسهامهم العظيم هو في الحرية السياسية التي تشكل الشرط الضرور ويتطرق كوندورسيه الى دور العرب في التاريخ فيرى أنهم تمكنوا بموقعهم وبشجاعتهم من الافلات من الفرس والاغريق والرو ويستعرض كوندورسيه مساهمات العرب في الآداب والعلوم والفلسفة والفلك والرياضيات والبصريات والطب التي نقلوها الجديدة. وكما يقول الكاتب فان ركود البلدان الشرقية سوف يفرض على أوروبا المتحضرة ان تحرّر الشرق من مضطهديا السياسة كان بواسي دانجلا في مشروع دستور الجمهورية الفرنسية في 23 حزيران يونيو 1795.

وفي خضم هذه الطروحات حول الحضارة، يستمد نابليون مشروع حملته المشرقية. ففي بياناتها الى المصريين يؤكد ابان حه مصر، فرسالتها تمدينية. وهو في مقدمة الكتاب الشهير "وصف مصر" الذي شارك نابليون في تصحيحه يريد "جعل السكان ناجزة لهم". والى جانب ذلك نجد في بياناته دعوات ونداءات لنزعة وطنية عربية او لفكرة مصرية وطنية. وفي منفاه، ذكر نا مصر سيدة العالم والاسكندرية المدينة الاهم، وأن هذه المستعمرة الفرنسية لن تتأخر عن اعلان استقلالها وتقوم فيها امة عظيمه كان مصطلح الحضارة هو المصطلح الذي يبرر اعمال نابليون في الشرق وفي أوروبا وحتى داخل فرنسا. وهكذا سيتولد ما يعر عشر، التي يمكن جمعها تحت اسم الحضارة الشاملة.

فكرة الحضارة هذه، مع عودة الملكية الى فرنسا اثر سقوط نابليون، ستتعمق اكثر خصوصاً مع الوزير والمفكر غيزو في محاة الحضارة في أوروبا ودور صراع الطبقات في تفسير التاريخ وعلاقة المجتمع الديني بالمجتمع المدني. كما بدأ الكلام عن تعدد لويس فيليب يصبح مصطلح الحضارة مقولة شبه حقوقية يستفيض الكلام عنها.

تأخذ الحضارة مع "السان - سيمونيين" معنى واسعاً يرتكز على مبدأ الاخاء وحده بين طبقات البشر، ويدعو الى سلام حول الا عجلة الحضارة باتجاه آسيا. ومن هنا دعوة "السان - سيمونيين" الى تخصيب مصر محمد علي، وفي العام 1833 تصبح مص محمد علي يكمل ما بدأه نابليون.

وانطلاقاً من هذه المنطلقات الاساسية للفكر الفرنسي يجري البحث في "اثر هذه الافكار الحضارية" في مصر بعد الحملة الفرنس من حيث تسليط الضوء على النائب الجديد للملك اي الخديوي، واعادة تنظيم مصر، وتكوين الامبراطورية الجديدة، وكيفية ودراسة موقع مصر في السياسة الفرنسية عبر ملكية يوليو، والبعثات الدراسية وأفكار "السان - سيمونيين"، الخ...

وتكرّس الدراسة فصلاً لسورية لتعالج مشاكل الاصلاحات وتطبيق النموذج المصري ودور السلطنة العثمانية، ودور محمد علي الذي طرحه الاخير، وتمدين سورية. ويتوقف الفصل عند افكار ابراهيم باشا ورؤية كل من لامارتين وجيزو وتوكفيل الى الشرق في الدولة العثمانية انطلاقاً من الخطوط الشريفة ومسألة الاقليات ومسألة القدس وتطور المسألة اللبنانية وكيفية تمدين الدولة لفرنسا الى قلب الازمة اللبنانية في العام 1860، ويُبرز مشروع مملكة الشام العربية والنزعة العربية ونزعة الاصلاح. وأ والعروبية انطلاقاً من الشؤون التونسية مروراً بمصطفى كامل والايديولوجيات العنصرية ومواقف المفكرين من درينان والافغا الى سيديو ولوبون والكواكبي وعازوري الى انبثاق النزعة العربية ودور فرنسا، وانتهاء بالحرب العالمية الاولى.

ان الافكار التي يصوغها الكتاب اضحت معروفة خصوصاً لجهة ناحية الحلم الحضاري الذي حمله معه نابليون وصياغات ه الاوروبيون منذ القرن الثامن عشر. ولكن اهمية الكتاب لا تقف هنا، بل في دخول الباحث الى كل مفاصل السياسة الفرنسية في صناعة الحدث السياسي والعسكري والتمدني عند المفكرين العرب.

هذا الفكر الحضاري هو الحلم المُشرِق الذي غلّف السياسة الفرنسية ولكن لا يمكنه اطلاقاً ان يخفي الحقائق الاقتصادية وا

السياسة بالفعل. فللدول حسابات ومصالح لا رسائل حضارية ومثالية.

انقر هنا لقراءة الخبر من مصدره.

مواضيع ذات صلة

- هنري لورنس يصحح الخطاب الاستشراقي
- الطورانية، والعروبية.. اليسار، واليسار الجديد
- الطورانية، والعروبية.. اليسار، واليسار الجديد
- فك الالتباس حول العالم العربي خلال الحقبة العثمانية
- اتجاهات الخطاب الفكري العربي النهضوي وإشكالاته